لسان يقتبس منه شعلةً ، أم يجدها قد هدأتْ ولم يَبْقَ منها إلا جذوة ، وهى القطعة المتوهجة مثل الفحم مثلاً ، فكلُّ تكرار هنا له موضع ، وله معنى ، ويضيف شيئاً جديداً إلى سياق القصة ، فهو تكامل فى اللقطات تأتى متفرقة حَسْب المراد من العبرة والتثبيت .

ومعنى ﴿ لأَهْلِه .. ﴿٧﴾ ﴾ [النمل] قالوا : إنها تعنى جماعة بدليل قوله لهم ﴿ امْكُثُوا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] فكانت زوجته ، ومعه أيضاً بعض الرُّعْيان أو الخدم . والإنسان منا يحتاج لأشياء كثيرة تقتضى التعدّد : فهذا يطبخ الطعام ، وهذا للنظافة ، وهذا لكَيِّ الملابس .. إلخ .

لكن هناك شىء واحد لا يستطيع أحد أنْ يقضيَه لك إلا زوجتك ، هى النسْل والمعاشرة الزوجية ، كما يمكن للزوجة وحدها أن تقوم لك بكل هذه الأعمال ، إذن : فهى تُغْنى عن الأهل كلهم ، ونستطيع أن نقول : إنه لم يكُنْ معه إلا زوجته .

وهذه شائعة فى لغتنا : يقول الرجل : الجماعة أو جماعتى أو أهلى ويقصد زوجته ، وفى هذا تقدير من الزوج لمكانة زوجته .

ومعنى ﴿ آنَسْتُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [النمل] آنس : يعنى شعر وأحسَّ بشىء يُؤنسه ويُطمئنه ، وضده التوجس : أى شعر وأحسَّ بشىء يخيفه ، ومنه قوله تعالى فى شأن موسى أيضاً : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه]

﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

أي : جاء النار فـ ﴿نُودِيَ .. ⑧﴾ [النمل] النداء : طلب إقبال ، كما تقول : يا فلان ، فيأتيك فتقول له ما تريد . فالنداء مثلاً في قوله تعالى : ﴿يَـٰمُوسَىٰ ⑪﴾ [طه] نداء ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ .. ⑭﴾ [طه] خطاب وإخبار .

لكن ما معنى ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧﴾ [النمل] ولم يقُلْ : يا موسى فليس هنا نداء ، قالوا : مجرد الخطاب هنا يُراد به النداء ؛ لأنه ما دام يخاطبه فكأنه يناديه ، ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا .. ⑭﴾ [الأعراف]

فذكر الخطاب مباشرة دون نداء ؛ لأن النداء هنا مُقدَّر معلوم من سياق الكلام ، ومنه أيضاً : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ⑱﴾ [الأعراف]

ومنه أيضاً : ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي .. ⑳﴾ [مريم] فجعل الخطاب نفسه هو النداء .

وقوله : ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧﴾ [النمل] كلمة بُورك لا تناسب النار ؛ لأن النار تحرق ، وما دام قال ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ .. ⑧﴾ [النمل] فلا بُدَّ أن مَنْ في النار خَلْق لا يُحرق ، ولا تؤثر فيه النار ، فمَنْ هم الذين لا تؤثر فيهم النار ، هم الملائكة[1] .

وقد رأى موسى - عليه السلام - مشهداً عجيباً ، رأى النار تشتعل في فرع من الشجرة ، فالنار تزداد ، والفرع يزداد خُضْرة ،

(١) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ .. ⑧﴾ [النمل] يعني تبارك وتعالى نفسه ، كان نور رب العالمين في الشجرة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧﴾ [النمل] - يعني الملائكة . أورده السيوطي في (الدر المنثور ٣٤١/٦) .

فلا النار تحرق الخضرة ولا رطوبة الخضرة ومائيتها تطفىء النار[1] ، فمَنْ يقدر على هذه المسألة ؟ لذلك قال بعدها : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑧﴾ [النمل]

ففى مثل هذا الموقف إياك أنْ تقول : كيف ، بل نزِّه الله عن تصرفاتك أنت ، فهذا عجيب لا يُتصوَّر بالنسبة لك ، أمَّا عند الله فأمر يسير .

وقد رأينا مثل هذه المعجزة فى قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين نجَّاه ربه من النار ، ولم يكُنْ المقصود من هذه الحادثة نجاة إبراهيم فقط ، فلو أن الله أراد نجاته فحسب لَمَا أمكنهم منه ، أو لأطفأ النار التى أوقدوها بسحابة ممطرة ، أسباب كثيرة كانت مُمكنة لنجاة سيدنا إبراهيم .

لكن الله تعالى أرادهم أنْ يُمسكوا به ، وأنْ يُلْقوه فى النار ، وهى على حال اشتعالها وتوهّجها ، ثم يُلْقونه فى النار بأنفسهم ، وهم يروْنَ هذا كله عَيَاناً ، ثم لا تؤذيه النار ، كأنه يقول لهم : أنا أريد أن أنجيه من النار ، رغم قوة أسبابكم فى إحراقه ، فأنا خالق النار ومعطيها خاصية الإحراق ، وهى مُؤْتمرةٌ بأمرى أقول لها : كُونى بَرْداً وسلاماً تكون ، فالمسألة ليست ناموساً وقاعدة تحكم الكونَ ، إنما هى قيوميتى على خَلْقى .

إذن : ما رآه موسى ـ عليه السلام ـ من النار التى تشتعل فى خضرة الشجرة أمر عجيب عندكم ، وليس عجيباً عند مَنْ له طلاقة القدرة التى تخرق النواميس .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٥٦) : « فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى إليها والنار تضطرم فى شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، وإنما كانت نوراً يتوهج » .

وبناء الفعل ﴿ بُورِكَ .. ﴿٨﴾ ﴾ [النمل] للمجهول تعنى : أن الله تعالى هو الذى يبارك ، فهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله ﴿ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٨﴾ ﴾ [النمل] يجوز أن يكون الملائكة ، أو : بُوركت الشجرة ذاتها لأنها لا تُحرق ، أو النار لأنها لا تنطفىء فهى مُباركة .

وفى موضع آخر يُوسِّع دائرة البركة ، فيقول سبحانه : ﴿ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ[1] الشَّجَرَةِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص]

ثم يخاطب الحق سبحانه موسى :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

جاء هنا النداء على حقيقته باداة ومنادى ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [النمل] هذا هو الأصل ، وما دُمْتُ أنا الله فلا تتعجَّب مما ترى ، وساعةَ تسمع مَنْ يُكلِّمك دون أن ترى متكلماً من جنسك ، فلا تتعجب ولا تندهش .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ونلحظ أن هنا تفاصيلَ وأحداث لم تذكرها الآية هنا ، وذُكِرَت فى موضع آخر فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

والأدب يقتضى أن يأتى الجواب على قَدْر السؤال ، لكن موسى ـ

(١) أى : من ناحية الشجرة . وقيل : كانت شجرة العُليق . وقيل : سمرة ، وقيل : عوسج ، ومنها كانت عصا موسى ، ذكره الزمخشرى . والعوسج إذا عظم يقال له الغرقد . [القرطبى فى تفسيره ٥١٦٨/٧] .

عليه السلام - أراد أنْ يطيل أمد الأُنْس بالله والبقاء في حضرته تعالى ، ولما أحسَّ موسى أنه أطال في هذا المقام أجمل ، فقال ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه] فللعصا مهام أخرى كثيرة في حياته .

وهنا يقول سبحانه : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] يعني : إنْ كانت العصا بالنسبة لك بهذه البساطة ، وهذه مهمتها عندك فلها عندي مهمة أخرى ، فانظر إلى مهمتها عندي ، وإلى ما لا تعرفه عنها .

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] فلمَّا ألقى موسى عصاه وجدها ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] يعني : حية تسعى وتتحرك ، والعجيب أنها لم تتحول إلى شيء من جنسها ، فالعصا عود من خشب ، كان فرعاً في شجرة ، فجنسه النبات ولما قُطعت وجفَّتْ صارت جماداً ، فلو عادت إلى النباتية يعني : إلى الجنس القريب منها واخضرتْ لكانت عجيبة .

أمَّا الحق - تبارك وتعالى - فقد نقلها إلى جنس آخر إلى الحيوانية ، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدهشة بل والخوف ، خاصة وهي ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] أي : تتحرك حركة سريعة هنا وهناك .

وطبيعي في نفسية موسى حين يرى العصا التي في يده على هذه الصورة أنْ يخاف ويضطرب ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه]

ومعنى ﴿الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه] إشارة إلى أنه تعالى يُعده لمهمة كبرى ، وأن لهذه العصا دوراً مع الخصوم ، وسوف ينتصر عليهم ، ويكون هو الأعلى .

وحين تتتبع اللقطات المختلفة لهذه القصة تجدها مرة (جان) ومرة (حية) ومرة (ثعبان) ، وهي كلها حالات للشيء الواحد ، فالجان فَرْخ الثعبان ، وله مِن خفة الحركة ما ليس للثعبان ، والحية هي الثعبان الضخم .

وقوله تعالى ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ⑩﴾ [النمل] يعني : انصرف عنها وأعطاها ظهره ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ⑩﴾ [النمل] تقول : فلان يُعقِّب يعني : يدور على عَقبه ويرجع ، والمعنى أنه انصرف عنها ولم يرجع إليها ؛ لذلك ناداه ربه سبحانه وتعالى : ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ⑩﴾ [النمل]

ونلحظ هنا نداءين اثنين يذكر فيهما ، المنادى موسى - عليه السلام - وكأنهما تعويض للنداء السابق الذي نُودي فيه بالخبر ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧﴾ [النمل]

وعلَّة عدم الخوف ﴿لَا تَخَفْ .. ⑩﴾ [النمل] ليعلمه أنه سيُضطر إلى معركة ، فليكُنْ ثابتَ الجأش لا يخاف لأنّه لا يحارب شخصاً بمفرده ، إنما جمعاً من السَّحرة جُمعوا من كل أنحاء البلاد ، وسبق أنْ قال له : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ⑥⑧﴾ [طه] حتى لا تُرهبه هذه الكثرة .

وهنا قال ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ⑩﴾ [النمل] والمعنى : لا تخفْ ، لأني أنا الذي أرسلتُك ، وأنا الذي أتولّى حمايتك وتأييدك ، كما قال الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ⑰① إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ⑰② وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ⑰③﴾ [الصافات]

فأنت معذور في الخوف ، ، إنْ كنتَ بعيداً عني ، فكيف وأنت في جواري وأنا معك ، وها أنذا أخاطبك ؟

وكان إلقاء العصا من موسى هذه المرة مجرد تجربة (بروفة) ليألف هذه المسألة ويأنس إليها ، وتحدث له دُرْبة ورياضة ، فإذا ما أجرى هذه العملية أمام فرعون والسحرة أجراها بثقة وثبات ويقين من إمكانية انقلاب العصا إلى حية .

وبعد ذلك يأتي بآية تثبت منطقة التكليف في البشر حتى الرسل ، والرسل أيضاً مُكلَّفون ، وكل مُكلَّف يصح أنْ يطيع أو أن يعصي ، لكن الرسلَ معصومون من المعصية ، أما موسى عليه السلام فله حادثة مخصوصة حين وكَز الرجل فسقط ميتاً ، فقال : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) ﴾ [الشعراء]

وفي موضع آخر يُحدِّد هذا الذنب : ﴿ قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) ﴾ [القصص]

ونضع هذه القصة أمامنا لنفهم :

﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾

إذن : فالاستثناء هنا من قوله تعالى ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) ﴾ [النمل] استثنى من ذلك ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ .. (١١) ﴾ [النمل]

وكأنه - عز وجل - يُعرِّض بهذه الحادثة الخاصة بموسى عليه السلام : ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ .. (١١) ﴾ [النمل] أي : حين قتَل القبطي[1] ، لكن

---

(١) القبطي هو المصري من أهل البلد التابع لفرعون وليس المقصود به النصراني المسيحي ، فموسى قبل عيسى بأجيال كثيرة ، وبينهما أنبياء ورسل كثيرون .

موسى - عليه السلام - اعترف بذنبه واستغفر ربه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ .. (١٦) ﴾ [القصص]

ولا كلامَ لأحد بعد مغفرة الله عز وجل للمذنب[1] ؛ لأنه بعد أنْ ظلم ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. (١١) ﴾ [النمل] يعنى : عمل عملاً حسناً بعد الذنب الذى ارتكبه ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾ [النمل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) ﴾

هذه آية أخرى ومعجزة جديدة ، قال عنها فى موضع آخر : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

فما الفرق بين : أدْخل يدك ، واسْلُك يدك ؟ قالوا : لأنه ساعة يُدخل يده فى جيبه يعنى : فى فتحة القميص ، إنْ كانت فتحة القميص مفتوحة أدخل يده بسهولة فيُسمَّى (إدخال) .

فإن كانت مغلقة (فيها أزرار مثلاً) احتاج أنْ يسلك يده يعنى : يُدخلها برفق ويُوسِّع لها مكاناً ، نقول : سلك الشىء يعنى : أدخله بلُطْف ورِفْق ، ومنه السلك الرفيع حين تُدخله فى شىء .

وساعةَ نسمع كلمة الجيب نجد أن لها معنىً عرفياً بين الناس ، ومعنى لُغوياً : فمعناها فى اللغة فتحة القميص العليا ، والتى تكون للرقبة ، وهى فى المعنى العُرْفى فتحة بداخل الثوب يضع فيها

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٤٣) : « إذا أحدث المقرب حدثاً فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة ، والمتَّهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة ، وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث فى ذلك الفرعونى ، ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له » .

الإنسان نقوده ، يقولون (جيب) والعوام لهم عُذْر فى ذلك ؛ لأنهم اضطروا إلى حفْظ نقودهم داخل الثياب ، حتى لا تكون ظاهرة ، وربما سرقها منهم النشالون والأشقياء .

ولا يزال الفلاحون فى الريف يجعلون الجيب فى (السديرى) الداخلى ؛ لذلك سمعنا الحاوى مثلاً يقول ـ ليُحنِّن الناس عليه ـ بارك الله فيمَنْ يضع يده فى جيبه ـ يعنى : بارك الله فى الذى يعطينى جنيهاً .

وقوله تعالى ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (١٢)﴾ [النمل] أى : وأخرجها تخرج بيضاء ناصعة مُنوَّرة ، ومعلوم أن موسى ـ عليه السلام ـ كان آدمَ اللون يعنى : أسمر ، فحين يروْنَ لونه تغيَّر إلى البياض ، فربما قالوا : إن ذلك مرضٌ كالبرص مثلاً .

لذلك أزال الله هذا الظنَّ بقوله : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (١٢)﴾ [النمل] من غير مرض ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ .. (١٢)﴾ [النمل] ليعلم موسى ـ عليه السلام ـ أن هذه الآية واحدة من تسع آيات أخرى يُثبِّته الله بها أمام عدوه فرعون وقومه .

وهذه التسع هى : العصا ولها مهمتان : أن تتحول إلى حية أمام السحرة ، وأنْ يضرب بها البحر أمام جيشه ، حينما يهاجمه فرعون وجنوده .

ثم اليد ، واثنتان هما الجدب ، ونقص الثمرات فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (١٣٠)﴾ [الأعراف]

ثم : الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل(١) ، والضفادع ، والدَّم . هذه

---

(١) القُمَّل : حشرات صغيرة تؤذى الزرع وتضايق الناس . [القاموس القويم ٢/ ١٣٤] . قال ابن منظور ـ فى اللسان ـ مادة : قمل « القمل : صغار الذر والدَّبى . وقيل : هو الدَّبى الذى لا أجنحة له . وقال ابن السكيت : القُمَّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سنبل له . قال الأزهرى : وهذا هو الصحيح » .

تسع آيات . تُثْبِت موسى أمام فرعون وقومه . فهل أُرسل موسى - عليه السلام - إلى فرعون خاصة ؟ لا ، إنما أُرسل إلى بنى إسرائيل ، لكنه أراد أنْ يُقنع فرعون بأنه مُرْسَل من عند الله حتى لا يحول بينه وبينهم ، وجاءت مسألة دعوة فرعون إلى الإيمان بالله عَرَضاً فى أحداث القصة ، فليست هى أساسَ دعوة موسى عليه السلام .

ومعنى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) ﴾ [النمل] إشارةٌ إلى أن الإنسان وإنْ كان كافراً خارجاً عن طاعة الله إلا أنَّ أصله من أصلاب مؤمنة ، والمراد الإيمان الأول فى آدم عليه السلام ، وفى ذريته من بعده ، لكنهم فسقوا أى : خرجوا من غشاء التكليف الذى يُغلِّف حركة حياتهم ، كما نقول : فسقت الرطبة : يعنى خرجت من غلافها ، كذلك فَسَق الإنسان أى : خرج عن حيِّز التكليف الصائن له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً (١) قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) ﴾

الآيات : المعجزات التى تُثبت صدْق الرسول ، والآيات تكون مُبْصَرة بصيغة اسم المفعول ، لكن كيف تكون هى المبصرة بصيغة اسم الفاعل ، وهذه المسألة عرفناها أخيراً ، فكانوا منذ القدم عند اليونان والحضارات القديمة يظنون أن رؤية العين للأشياء تحدث من شعاع يخرج من العين إلى الشىء المرئى ، إلى أن جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ليثبت خطأ هذه النظرية ويقول بعكسها .

---

(١) مبصرة : أى : واضحة بينة ظاهرة . [تفسير ابن كثير ٣/٣٥٧] . وقال الجوهرى : مبصرة : أى : مضيئة . وقال أبو إسحاق : معنى مبصرة تُبصِّرهم أى تبين لهم . وقال الأخفش : إنها تُبصِّرهم أى تجعلهم بُصراء . [لسان العرب - مادة : بصر] .

فالرؤية تتم بخـروج شعاع من الشيء المـرئيّ إلى العين ، بدليل أننا لا نرى الشيء إنْ كـان فى الظلام ، وأنت فى النـور ، فإنْ كـان الشيء فى النور وأنت فى الظلام تراه .

إذن : فكأن الآيات نفسها هى المبصرة ؛ لأنهـا هى التى ترسل الأشـعة التى تسـبب الرؤية . أو : أن الآيات من الوضـوح كأنهـا تُلِحّ على الناس أنْ يروْا وأنْ يتأملوا ، فكأنها أبصرُ منهم للحقائق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ وَجَحَدُوا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أى : باللسان ﴿ بِهَا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] بالآيات ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أى : إيماناً بها ، إذن : المسألة عناد ولَدَد فى الخصومة ؛ لذلك قال تعالى بعدها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أى : استكباراً عن الحق ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] وترْك عاقبتهم مبهمة لتعظيم شأنها وتهويلها .

ثم يترك قصة موسى مع فرعون ومـا كان من أمرهما لمـناسبة أخرى تحـتاج إلى تثبيت آخـر ، وينتقل إلى قصة أخرى فـى موكب الأنبياء ، فيها هى الأخرى مواطن للعبْرة وللتثبيت :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وتسأل : لقد أعطى الله داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ نعَماً كثيرة غير العلم ، ألاَن لداود الحديد ، وأعطى سليمان مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخَّر له الريح والجن ، وعلَّمه منطق الطير .. إلخ ومع ذلك لم يمتنّ عليهما إلا بالعلم وهو منهج الدين ؟

قالوا : لأن العلم هو النعمة الحقيقية التى يجب أن يفرح بها المؤمن ، لا الملْك ولا المال ، ولا الدنيا كلها ، فلم يُعتد بشىء من هذا كله ؛ لذلك حمد الله على أن آتاه الله العلم ؛ لأنه النعمة التى يحتاج إليها كل الخَلْق ، أما المُلْك أو الجاه أو تسخير الكون لخدمته ، فيمكن للإنسان الاستغناء عنها .

والإمام على ـ كرم الله وجهه ـ حينما نُفى أبو ذر ؛ لأنه كان يتكلم عن المال وخطره والأبنية ومسائل الدنيا ، فَنَفَوْه إلى الربذة حتى لا يثير فتنة ، لكنه قبل أن يذهب مرَّ بالإمام على كى يتوسط له ليعفوا عنه ، لكن الإمام علياً ـ رضى الله عنه ـ أراد ألاَّ يتدخل فى هذه المسألة حتى لا يقال : إن علياً سلَّط أبا ذر على معارضة أهل الدنيا ومهاجمتهم ، فقال له : يا أبا ذر إنك قد غضبتَ لله فارْجُ مَنْ غضبتَ له ، فإن القوم خافوك على دُنْياهم ومُلكهم ، وخفْتهم أنت على دينك فاهرب بما خِفْتَهم عليه ـ يعنى : اهرب بدينك ـ واترك ما خافوك عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عمَّا منعوك [1] .

(١) أورد ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٣٠٣) : « روى البخارى فى أفراده من حديث زيد بن وهب قال : مررت بالربذة فقلت لأبى ذر : ما أنزلك هنا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ..(٣٤)﴾ [التوبة] ، فقال : نزلت فى أهل الكتاب . فقلت : فينا وفيهم . فكتب يشكونى إلى عثمان . فكتب عثمان : أقْدم المدينة فقدمتُ فكثر الناس علىّ كأنهم لم يرونى قبل ذلك ، فذكر ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحَّيْتَ فكنت قريباً ، فذلك الذى أنزلنى هذا المنزل » فهذه الواقعة كانت فى زمن خلافة عثمان بن عفان ، وقد توفى أبو ذر فى زمن عثمان . وهذا لا يمنع أن يكون أبو ذر قد استشار على بن أبى طالب إذ لم يكن خليفة .

هكذا أزال الإمام هذا الإشكال ، وأظهر أهمية العلم ومنهج الله بحيث لا يستغنى عنه المسلم بحال من الأحوال ، ولا يعيش بدونه ، وبه ينال حياة أخرى رفيعة باقية ، فى حين يستطيع الإنسان أن يعيش بدون المال وبدون الملك .

ولذلك يبعث خليفة المسلمين إلى سيدنا جعفر الصادق : يا ابن بنت محمد ﷺ ما لك لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟ أى : تأتينا وتجالسنا وتسمر معنا ، فقال : ليس عندى من الدنيا ما أخافك عليه - يعنى : ليس عندى مال تصادره - وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له . وهذا نفس المنطق الذى تكلم به الإمام على .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥)﴾ [النمل] فالحمد هنا على نعمة العلم وحفظ منهج الله ، وفى الآية مظهر من مظاهر أدب النبوة ، حيث قالا ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥)﴾ [النمل] فكأن هناك مَنْ هم أفضل منّا ، وليس التفضيل حَجْراً علينا ، وهذا من تواضعهما عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ (١٦)﴾

قوله سبحانه ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. (١٦)﴾ [النمل] أى : بقيت فيه النبوة وحمل المنهج ، لا الملك لأن الأنبياء لا تورث كما جاء فى الحديث الشريف : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[1]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورث ما تركناه صدقة » .

وهذا يدل على أن سليمان جاء بعد داود ، وقد ورث عنه النبوة مع أنهما متعاصران ، بدليل قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الأنبياء]

إذن : كان سليمان مع داود فى هذه الحكومة وفى العلم ، لكن الحق سبحانه جعل العلم منازل ، بدليل أنه قال : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] مع أن أباه موجود ، وحكم فى القضية بأن يأخذ صاحبُ الزرع الغنم التى أكلت .

فلما خرجوا من عند داود سألهم سليمان عن حكم أبيه ، فأخبروه بما قال ، فقال سليمان : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يصلحه حتى يعود كما كان ، وعندها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زرعه[2] .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا هذا المثل مع نبى وأبيه ، لا مع نبيين مختلفين بعيدين ، وفى هذا إشارة إلى أن حقَّ الأبوة على سليمان لم يمنعه من مخالفة أبيه فى الحكم ؛ لأن الله تعالى قال عنهما ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] فكلٌّ منهما يحكم على مقتضى علمه الذى منحه الله .

ومن هذه الحادثة أخذنا مشروعية الاستئناف والنقض فى أحكام المحاكم ، فقاضى الاستئناف حينما يُعدِّل فى حكم القاضى الابتدائى لا يُعَدُّ هذا طعناً فيه ، إنما كل منهما حكم بناءً على علمه ، وعلى

(١) نفشت الغنم : انتشرت فى المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢/٢٧٩] قال ابن منظور فى [اللسان ـ مادة : نفش] : « نفشت الإبل والغنم : انتشرت ليلاً فرعت ، ولا يكون ذلك بالنهار ، وخصَّ بعضهم به دخول الغنم فى الزرع » .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/١٨٦) عن ابن عباس .

ما توفَّر له من أدلة ووقائع ، وربمـا فطن القاضى الثانى لما لم يفطنْ له القاضى الأول .

إذن : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. (١٦) ﴾ [النمل] لا تعنى أنه جـاء بعده ، إنما هما متعاصران ، وورثه فى العلم والنبوة والحكمة ، لا فى الملْك والمال ؛ لأن الله تعالى يريد أن يكون الرسول بعيداً فى رسالته وتبليغه عن الله عن أىٍّ نفع يجىء له ، أو لذريته .

لذلك كان الفقراء من أهل النبى ﷺ لا يأخذون من زكاة المؤمنين ، لكن أين هذا التشـريع الحكيم مـمـا يحـدث الآن من الحكام والرؤسـاء والمسئولين ممَّنْ يوالون أقاربهم ، وينهبون البلاد من أجلهم ؟

﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل] فالطير له منطق ولغة ؛ لأنـه كما قـال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨) ﴾ [الأنعام] والآن ومع تقدُّم العلم يتحدث العلماء عن لغة للنمل ، ولغة للنحل ، ولغة للسمك .. إلخ .

وهذه المخلوقات تتفاهم بلغاتها بدقَّة تفاهم غريزى ، لكننا لا نفهم هذا المنطـق ، والحق ـ تبـارك وتعـالى ـ يُـعلِّمنا : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] فإنْ قلتَ كمَنْ قـالوا : هو تسبيح دلالة لا مـنطقَ ومقال ، نقـول : طالما أن الله تعالى قال ﴿ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] فلا بُدَّ أنه مقال وكلام ، ولكن أنت لا تفهمه .

وعلماء اللغـة يقولون : إن النطق خاصٌّ بالإنسان ، أمـا ما تُحدثه الحيوانات والطيور فأصـوات تُحدثها فى كل وقت ، مثل مواء القطة ، ونُباح الكلب ، وخُوَار البـقر ونقيق الضفـادع ، لكن هذه الأصوات لها معنى (فنونوة) القطة حين تجوع غير (نونوتها) حين تخاف .

إذن : فهى تُعبِّر ، لكننا لا نعرف هذه التعبيرات ، كيف ونحن البشر لا يعرف بعضنا لغات بعض ؛ لأننا لم نتعلمها ، واللغة ضرورة اجتماعية نتواضع عليها أى : نتفق أن هذا اللفظ يعنى كذا ، فإذا نطقتَ به أفهمك ، وإن نطقتُ به تفهمنى .

واللغة بنت الاستماع ، فاللفظ الذى تسمعه تستطيع نُطْقه ، والذى لم تسمعه لا تستطيع نُطْقه ، حتى لو كان لفظاً عربياً من لغتك ، ولا تعرف أيضاً معناه ، فلو قلت لك : (إنما الحيزبون والدردبيس والطخا والنخالح والعصلبيص) فلا شكَّ أنك لا تعرف لهذا معنى ؛ لأننا لم نتواضع على معناه .

والطفل الذى نشأ فى بيئة عربية يتكلم العربية ؛ لأنه سمعها ولا يتكلم الإنجليزية مثلاً ؛ لأنه لم يسمعها ، ولو وضعتَ نفس الطفل فى بيئة إنجليزية لتكلم الإنجليزية ؛ لأن اللغة لا ترتبط بجنس ولا دم ، اللغة سماع .

ومعنى ﴿ وأُوتينا من كُلِّ شَيْءٍ .. (١٦) ﴾ [النمل] أى : من النِّعَم على الإطلاق ، وبعد قليل سنسمع نفس هذه العبارة يقولها الهدهد عن ملكة سبأ ﴿ وأُوتيَتْ من كُلِّ شَيْءٍ .. (٢٣) ﴾ [النمل] إذن : فهى مثله فيما يناسب أمثالها من الملوك لا فى النبوة وحَمْل المنهج ﴿ إنَّ هَـٰذَا لَهُو الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل] الفضل المحيط بكل الفضائل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) ﴾

حُشِروا : جُمِعوا من كل مكان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وابْعَثْ فِى

﴿الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦)﴾ [الشعراء] والحشْر : جَمْع الناس للحساب يوم القيامة .

وسُمِّى الجمع حَشْراً ؛ لأنك تجمع الناس من أماكن متفرقة فى مكان واحد ، حتى يضيق بهم ويزدحم ، وهذا معنى الحشْر المتعارف عليه عندنا ، نقول : نحشرهم على بعض .

ومعنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)﴾ [النمل] يعنى : يُمنعون ، ومنه قوله « إن الله ليزع بالسُّلْطان ما لا يزع بالقرآن » يعنى : أن السلطان والقوة والبطش تمنع ما لا يستطيع القرآن منعه ؛ ذلك لأنهم يستبعدون القيامة والعذاب ، أمّا السلطان فرادع حاضر الآن .

لكن ، ممَّ يمنعون وهم فى موقف الحشر أمام سليمان ؟ قالوا[1] : يُمنعون أن يَسبق بعضهم بعضاً إلى سليمان ، إنما نمنعهم حتى يأتى المتأخر منهم ، ويدخلون جميعاً عليه مرة واحدة ، وفى ذلك إحداثُ توازنٍ بين الرعية كلها .

وقد حدَّثونا أن النبى ﷺ كان من صفاته إذا جلس فى مجلس توزعَتْ نظراته وعينه على كل الجالسين حتى يُسوِّى بينهم ، ولا ينظر لأحد أكثر من الآخر[2] ، ولا يُميز أحداً منهم على أحد ، حتى لا يظن أحدهم أن النبى فضَّله على غيره .

وكان ﷺ لا يُقرِّب إلا أهل الفضل والتقوى الذى يُعرف منهم أنهم لا يستغلون هذه المكانة لنيل سلطة بين الناس ؛ ولذلك كان ﷺ

---

(١) قاله ابن عباس بنحوه : جعل على كل صنف منهم وزعة ترد أولاها على أخراها لئلا يتقدموا فى المسير كما تصنع الملوك . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٤٧/٦) وعزاه لابن جرير الطبرى .

(٢) من أدب النبوة أن رسول الله ﷺ لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسله ولم يكن يرى ركبتيه أو ركبته خارجاً عن ركبة جليسه ، ولم يكن أحد يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه . رواه البزار والطبرانى فى الأوسط وإسناد الطبرانى حسن . مجمع الزوائد للهيثمى (١٥/٩).

لا يُوطِّن الأماكن وينهى عن ذلك[١] على خلاف ما نراه الآن من بعض المصلِّين الذين يضعون سجادة مثلاً فى الصف الأول يشغلون بها المكان ، ثم يذهب ويقضى حاجاته ، ويعود وقد امتلأ المسجد فيتخطَّى رقاب الناس ليصل إلى مكان فى المقدمة ، وهو ليس مكانه عند الله .

فالله تعالى قد وزَّع الأماكن على حَسْب الورود ، فإتيانك إلى بيت الله أولاً يعطيك ثواب الصف الأول ، وإنْ صليت فى الصفِّ الأخير ، وعدم توطين الأماكن ينشر الأُلْفة بين الناس ، ويزيل الفوارق ويساعد على التعارف . فكل صلاة أنت بجانب شخص جديد تتعرف عليه وتعرف أحواله .

وهذا معنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النمل] يمنع السابق أنْ يسبق حتى يأتى اللاحق ، ليكونوا سواسية فى الدخول على نبى الله سليمان عليه السلام .

لكن فى ضوء هذا المعنى لمادة (وزع) كيف نفهم قوله تعالى :
﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل]

أوزعنى هنا يعنى : أقْدِرنى وامنعنى من الغفلة عن نعمتك ، لأظلَّ شاكراً لك .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٥/٤٤٧) ، وابن ماجه فى سننه (١٤٢٩) ، وأبو داود فى سننه (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال : « نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير » ، أما الإمام أحمد فقد أخرجه من حديث أبى سلمة الأنصارى .